المحاضرة الثانية: نظريات نشأة اللغة.

1 - تمهيد:

لقد شغلت قضية نشأة اللغة الإنسانية المفكرين على مر العصور، وتصدى للبحث عنها كثير من العلماء، والفلاسفة، والمتكلمين، واللغويين.

ولقد بُذلت جهود كثيرة، وأجريت تجارب متعددة لكشف هذه القضية، فلم يجمعوا على قول واحد، بل ذهبوا في البحث مذاهب شتى، وتوصلوا إلى نظريات عديدة أشهرها أربع نظريات هي[1]:

1-نظرية التوقيف والإلهام. 2-نظرية التواضع والاصطلاح.

3-نظرية التقليد والمحاكاة. 4-نظرية الغريزة الكلامية.

وليس في أدلة أيٍّ من تلك النظريات ما تطمئن إليه النفوس، ويحل منها محل القطع، أو الظن القريب منه.

ومع صعوبة أو تعذر الوصول إلى رأي يرضى به الباحثون، ولا يجدون فيه نقصاً ولا عليه اعتراضاً إلا أنه لا بد من الإشارة إلى تلك النظريات التي سيقت حول تفسير نشأة الكلام الإنساني، وذلك لأسباب عديدة منها:

1-معرفة عناية العلماء في هذا البحث.

2-أن هذه القضية شغلت حيزاً من التفكير، ونالت قدراً من وافراً من الجهد.

3-بيان أن علماء المسلمين قد شاركوا في هذا الموضوع، وعرضوا آراءاً لا تقل جدية واستدلالاً عما قدَّمه غيرهم قديماً وحديثاً، بل ربما فاقوا غيرهم، وسبقوه.

2 - ملخص حول نظريات نشأة اللغة:

الأولى: نظرية التوقيف والإلهام: وخلاصة هذه النظرية عند القائلين بها أن اللغة الإنسانية إلهام، ووحي من الله _ عز وجل _ لا يَدَ للإنسان في وضعها؛ فهو أعجز من ذلك؛ فهي _ إذاً _ توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها.

ولهذه النظرية أنصارها منذ أقدم العصور؛ فهي تنسب للفيلسوف اليوناني (هيرا لكيت) ت480ق. م.

ومال إليها بعض المُحدَثين منهم الأب الفرنسي (لامي) ت1711م.

وقد اعتمد غير المسلمين على أدلة نقلية؛ فقد ورد في التوراة أن الله _ تعالى _ خلق جميع الحيوانات والطيور ثم عرضها على آدم _ عليه السلام _ ليرى كيف يسميها؛ فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة، وطيور السماء، وذوات العقول.

وقد قال بهذه النظرية غير قليل من علماء المسلمين، ومنهم ابن فارس حيث قال أقول: إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله _ جل ثناؤه _: [وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا].

فكان ابن عباس يقول: علم الأسماء كلها.

وهذه هي التي يتعارفها الناس من دابة، وأرض، وسهل، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

1_ انظر تفاصيل ذلك في كتاب: الخصائص 1/94_99، والصاحبي ص13، ومجموع الفتاوى لابن تيمية 7/62_67، و 12/240، والإيمان لابن تيمية ص82_85، والمزهر 1/8_18، ومولد اللغة للشيخ أحمد رضا ص28_48، وفقه اللغة د. عبده الراجحي ص77_99، وفقه اللغة العربية وخصائصها د. إميل يعقوب ص14_27، ومحاضرات أ.د. علي البواب على طلاب كلية اللغة العربية.

وروى خصيف عن مجاهد: قال: علَّمه اسم كل شيء.

وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة.

وقال آخرون: إنما علمه أسماء ذريته أجمعين.

أما ابن جني فقد عرض هذه النظرية، ولم يجزم بها كابن فارس، بل تردد فيها هو وشيخه أبو علي الفارسي، بين التوقيف والإلهام، والقول بالمواضعة والاصطلاح[2].

وقال قوم: بعضها توقيفيٌ وبعضها اصطلاحي، وهذا قول طوائف، منهم: ابن عقيل، وغيره.

وقال قوم: يجوز فيها هذا وهذا ولا نجزم بشيء، وهذا قول القاضي أبي يعلى، والقاضي أبي بكر ابن الباقلاني وغيرهما.

ولم يقل: إنها كلها اصطلاحية إلا طوائف من المعتزلة ومن اتبعهم، ورأس هذه المقالة أبو هاشم الجبَّائي[3].

ويلحظ أن هذه النظرية تعتمد على النصوص النقلية، كما أنها لا تخلو من اعتراضات، وقد رد عليهم المحتجون بردود منها:

1_ أن نص التوراة يضعف دليلهم، وأنه حجة عليهم لا لهم؛ لأن فيه إشعاراً بأن آدم _ عليه السلام _ هو الذي وضع الأسماء.

2_ أن الآية التي احتج بها علماء المسلمين ليست دليلاً قاطعاً؛ فقداختلف المفسرون في المراد بالأسماء.

وابن فارس نفسُه ساق بعض أقوالهم _ كما مر _.

3_ أنه لو كانت اللغة توقيفية لما جاز لنا أن نُدخل فيها شيئاً، ألا ترى إلى لغتنا العربية اليوم ونحن ندخل فيها من مصطلحات العلوم والفنون الشيء الكثير؟

ألا ترى أننا ننقل دلالات بعض الألفاظ كالسيارة، والدراجة وغيرها؟.

إن حدوث الترادف، والاشتراك، والتضاد في اللغة _ لدليل على أن اللغة ليست كلها توقيفاً من الله _ تعالى _.

وبهذا وغيره يتبين أن الأدلة المُساقة لا تنهض بهذه النظرية، ولا تقوى على الوقوف في وجه الاعتراضات.

النظرية الثانية: نظرية التواضع والاصطلاح، أو يقال: المواضعة:

وتتلخص هذه النظرية في أن اللغة مواضعة واتفاق بين الناس؛ بحيث يصطلحون على كذا وكذا من الألفاظ.

وقد قال بهذه النظرية الفيلسوف اليوناني (ديمو كريت) في القرن الخامس قبل الميلاد، كما مال إليها بعض الفلاسفة الإنجليز.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مصوراً هذه النظرية: =أن قوماً اجتمعوا، واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا، وهذا بكذا، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات.

وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبي هاشم الجبائي[4].

وقد صور ابن جني هذه النظرية بقوله: =وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة.

قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً؛ فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمةً ولفظاً إذا ذكر عُرِف به ما مسماه؛ ليمتاز عن غيره، وليُغْنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين[5].

2_ انظر الخصائص 1/94_99.
3_ مجموع الفتاوى 12/240.
4_ مجموع الفتاوى 7/62.

وبعد أن وضَّح ذلك ذكر أن التواضع يمكن أن ينقل إلى لغة أخرى، وجعل ما يشاهد من اختراع الصُنَّاع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار، والصائغ، والحائك دليلاً على هذا الرأي.

هذا وقد اعترض على هذه النظرية باعتراضات منها:

1_ أن التواضع يحتاج إلى لغة سابقة يُتفاهم بها.

2_ أنه لا يكون حكماء يتواضعون بدون لغة، فهذه النظرية _ إذاً _ لا تحل المشكلة، ولا تخلو من المآخذ.

3_ أن هذا القول مجرد دعوى تفتقر إلى دليل؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية×: =فلا يمكن لأحد أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع...

النظرية الثالثة: نظرية المحاكاة والتقليد: وتتلخص هذه النظرية بأن نشأة اللغة بدأت محاكاةً للأصوات الطبيعية، وتقليداً للأصوات المسموعة من الحيوانات والأشجار، وصوت الرعد وغيره.

قال ابن جني: وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل+[6].

وإلى هذه النظرية يميل كثير من الباحثين المعاصرين، ويرون أنها تساير طبيعة الأشياء التي تبدو بسيطة ثم تنمو وتتطور؛ فاللغة _ من منطلق هذه النظرية _ بدأت تقليداً لأصوات الطبيعة، وقد يكون المتكلمون استخدموا _ مع ذلك _ التعبيرات والإشارات، ثم استُغني عن ذلك فيما بعد.

واستند هؤلاء _ أيضاً _ إلى لغة الطفل التي تبدأ تقليداً، ثم تنمو وتستقيم، وأن كثيراً من الأمم البدائية يستخدمون الإشارات اليدوية، والجسمية للمساعدة في التعبير.

ولقد وجهت نقودٌ واعتراضات على هذه النظرية، ومن ذلك:

1_ أنها تنزل بالإنسان إلى ما هو أقل منه؛ فليس من المعقول _ عند المعترضين _ أن يقلد الإنسان صوت الحيوان والأصوات المسموعة الأخرى.

2_ أن اللغات الراهنة لا تشتمل إلا على قدر ضئيل من الكلمات التي تتضح فيها الصلة بين اللفظ والمعنى.

3_ أن كثيراً من الأمم البدائية يتكلمون بلغات لا يظهر فيها أثر المحاكاة والتقليد للطبيعة.

النظرية الرابعة: نظرية الغريزة الكلامية: وهي إحدى النظريات الحديثة، وترى أن الإنسان مزود بغريزة خاصة كانت تحمل كل إنسان على التعبير عن كل مُدْرَكٍ حسيٍّ، أو معنوي بكلمة خاصة، ولذا اتحدت المفردات والتعابير عند الإنسان الأول، وأنه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة؛ فانقرضت.

وممن قال بهذه النظرية الفرنسي (رينان) ت1890م، والألماني (مولر) ت1900م، وهما من أشهر علماء اللغة الأوربيين.

وقد وجهت إليهما اعتراضات منها:

1_ أن المعاني الكلية المعنوية تدل على رقي لا يَصْدُقُ معه أن تكون هذه هي اللغة الإنسانية الأولى التي يفترض أن تكون بسيطة؛ فهذه الأصول مرحلة لغوية متقدمة.

2_ أن الغريزة الكلامية لم يعرف كيف استُخدمت أول مرة للتعبير عن حاجة الإنسان، وهذا هو الموضوع الذي تدور حوله المشكلة كلها.

5_ الخصائص 1/96_97.
6_ الخصائص 1/98_99.

هذه هي أشهر النظريات حول نشأة اللغة، وهناك نظريات أخرى حاولت حل هذه المشكلة ولكنها لم تصل بالموضوع إلى نهاية يوقف عندها.

هل يمكن التوفيق بين النظريات السابقة؟:

بعد عرض النظريات الأربع يتبين أن الباحثين فيها قد استنفذوا طرق البحث الممكنة؛ من اعتماد على الأدلة النقلية والعقلية، والبحث في الواقع اللغوي بمختلف إمكاناته. ومع ذلك لم يُتَوَصَّل إلى رأي قاطع في تلك المسألة.

ولو حاول العلماء والباحثون في هذه المسألة أن يأخذوا من كل نظرية بجانب لربما كان للمشكلة صورةٌ أوضحُ وأقربُ للواقع.

قال القاضي أبو بكر: يجوز أن يثبت توقيفاً، ويجوز أن يثبت اصطلاحاً، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً، وبعضه اصطلاحاً والكل ممكن [7].

ففي هذا الرأي محاولة للتوفيق بين قولين هما أشهر الأقوال في المسألة وهما القول بالتوقيف والإلهام، والقول بالاصطلاح والمواضعة.

وههنا محاولة للتوفيق بينهما؛ إذ كل منهما يحتمل شيئاً من الصواب، ويَتَوَجَّهُ إليه اعتراض؛ فلو جمعنا النظريات، وأخذنا الجانب الإيجابي من كل منهما دون إغفال لنظرية أخرى لربما أمكن الوصول إلى تصور أفضل.

وبهذا يمكن الجمع بين النظريات جميعاً في تصور نشأة اللغة الإنسانية.

7_ المزهر 20/1.